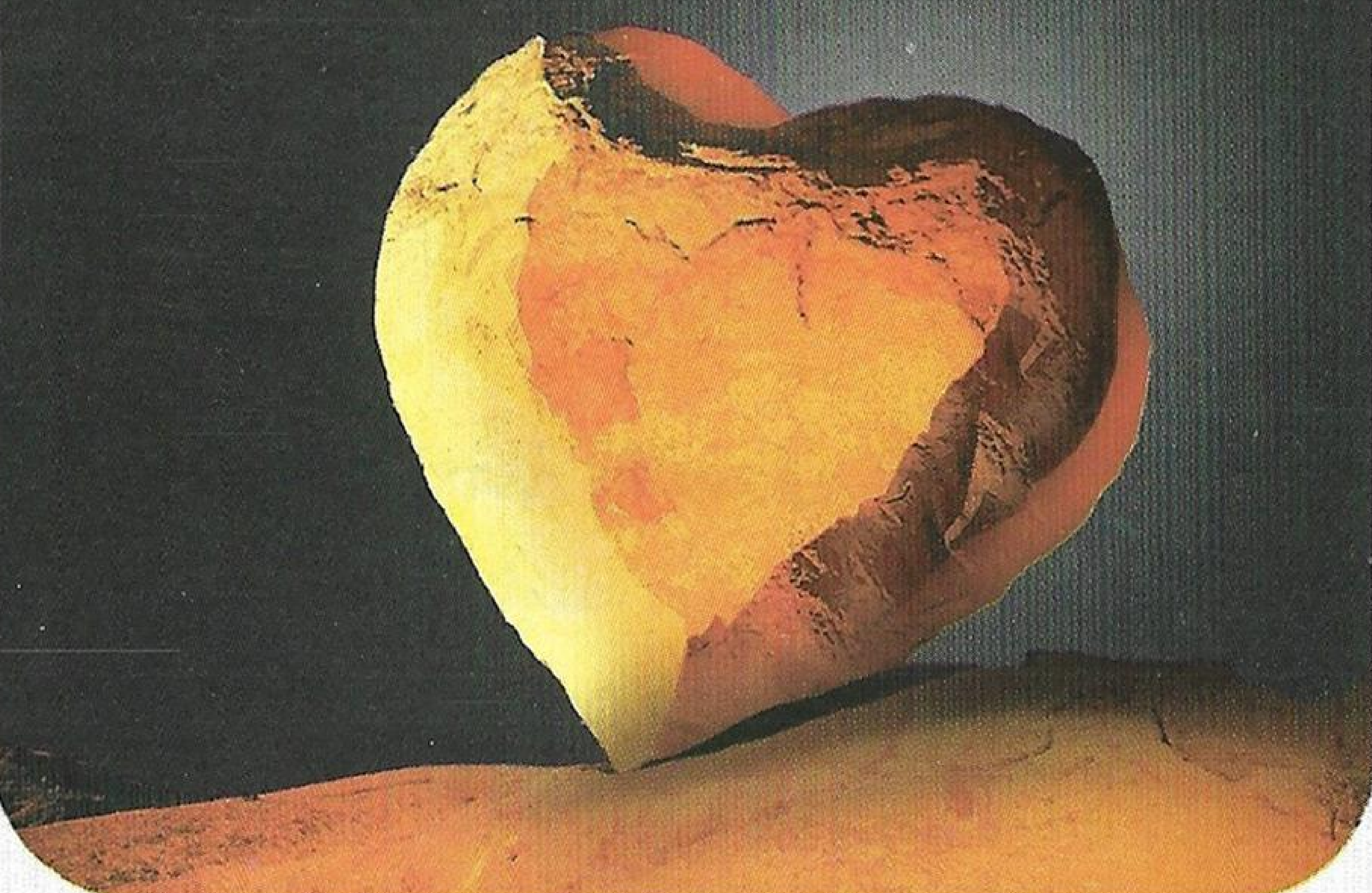


جحيم الغفلة



إعداد

خالد أبو صالح





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده... وبعد:

فهذه كلمات نافعة عن مرض الغفلة، الذي عم أثره، واستشرى خطره، وعظم ضرره، مع ذكر بعض آثاره وأسبابه وعلاجه، انتقيتها من بطون كتب العلامة ابن القيم، ورتبتها حسب الإمكان، أسأل الله أن ينفع بها وأن يعصمنا من الغفلة إنه سميع مجيب..

الغفلة إحدى طرق الشيطان إلى القلب:

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «كل ذي لب يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه الا من ثلاث جهات:

- **أحدها:** التزيّد والاسراف.
- **الثانية:** الغفلة، فان الذاكر في حصن الذكر، فمتى غفل فتح باب الحصن فولجه العدو فيعسر عليه أو يصعب إخراجه.
- **الثالثة:** تكلف ما لا يعنيه من جميع الأشياء».

[الفوائد]

الفرق بين الغفلة والنسيان:

«والفرق بين الغفلة والنسيان: أن الغفلة ترك باختيار الغافل والنسيان ترك بغير اختياره ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، ولم يقل: ولا تكن من الناسين فإن النسيان لا يدخل تحت التكليف فلا ينهى عنه». [مدارج السالكين]

ذم أهل الغفلة في القرآن:

وقد ذم سبحانه أهلها ونهى عن الكون منهم وعن طاعتهم والقبول منهم قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ



ٱلْغَٰفِلِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]. وقال النبي ﷺ في وصيته لنساء المؤمنين: «**لا تغفلن فتنسين الرحمة**» [رواه الترمذي وحسنه الألباني].

وسئل بعض العلماء عن عشق الصور فقال: «قلوب غفلت عن ذكر الله فابتلاها الله بعبودية غيره».

فالقلب الغافل مأوى الشيطان، فإنه وسواس خناس قد التقم قلب الغافل، يقرأ عليه أنواع الوساوس والخيالات الباطلة، فإذا تذكر وذكر الله انجمع وانضم وخنس وتضاءل لذكر الله، فهو دائما بين الوسوسة والخنس، يترقب غفلة العبد فيبذر في قلبه بذر الأماني والشهوات والخيالات الباطلة، فيثمر كل حنظل وكل شوك وكل بلاء، ولا يزال يمده بسقيه حتى يغطي القلب ويعميه. [مفتاح دار السعادة]

«فالغفلة تبعد العبد عن الله، وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة، وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية، وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله» [الجواب الكافي]

حصاد الغفلة: المعاداة بين العبد وربه:

فالذكر أصل موالاة الله عز وجل ورأسها، والغفلة أصل معاداته ورأسها، فإن العبد لا يزال يذكر ربه عز وجل حتى يحبه فيواليه، ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه فيعاديه. قال حسان ابن عطية: ما عادى عبد ربه بشئ أشد عليه من أن يكره ذكره أو من يذكره، فهذه المعاداة سببها

الغفلة، ولا تزال بالعبد حتى يكره ذكر الله ويكره من ذكره فحينئذ يتخذه عدوا كما اتخذه الذاكر وليا. [الوابل الصيب]

جحيم أهل الغفلة في الدنيا قبل الآخرة:

«وأهل الغفلة عن الله وأهل المعاصي فى جحيم قبل الجحيم الأكبر، وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار:١٣-١٤]». [مدارج السالكين]

ظلمة الغفلة:

«ولذلك بعث الله رسله ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، فمن أجابهم خرج إلى الفضاء والنور والضياء، ومن لم يجبهم بقي في الضيق والظلمة التي خلق فيها، وهي: ظلمة الطبع، وظلمة الجهل، وظلمة الهوى، وظلمة الغفلة عن نفسه وكمالها وما تسعد به في معاشها ومعادها». [هداية الحيارى]

الغفلة تمرض القلب وتميته:

فالغفلة هي قحط القلوب وجدبها، وما دام العبد في ذكر الله والإقبال عليه، فغيث الرحمة ينزل عليه كالمطر المتدارك، فإذا غفل ناله من القحط بحسب غفلته قلة وكثرة، فإذا تمكَّنت الغفلة منه واستحكمت صارت أرضه خرابا ميتة، وسنته جرداء يابسة، وحريق الشهوات يعمل فيها من كل جانب كالسَّمائم، فتصير أرضه بورا بعد أن كانت مُخصَبة بأنواع النبات والثمار وغيرها، وإذا تدارك عليه غيث الرحمة اهتزت أرض إيمانه وأعماله وربت، وأنبتت من كلِّ زوج بهيج. [أسرار الصلاة]

الغفلة تورث قسوة القلب:

ففي القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله تعالى، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالى، وذكر أن رجلا قال للحسن: «يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي» قال: «أذبه بالذكر» وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة اشتدت به القسوة، فإذا ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار، فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله عز وجل. [الوابل الصيب]

الغفلة تطمس نور القلب:

فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكبا على قلبه وصدؤه بحسب غفلته، وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه، فيرى الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل، لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه، فإذا تراكم عليه الصدأ واسود وركبه الران فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقا ولا ينكر باطلا وهذا أعظم عقوبات القلب.

وأصل ذلك من الغفلة واتباع الهوى فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر: هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطا، ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع أي أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به وبه رشده

وفلاحه ضائع قد فرط فيه، وفسر بالإسراف أي قد أفرط، وفسر بالإهلاك، وفسر بالخلاف للحق وكلها أقوال متقاربة.

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده كذلك فليبعد منه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى عز وجل واتباع السنة وأمره غير مفروط عليه بل هو حازم في أمره فليستمسك بغرزه، ولا فرق بين الحي والميت إلا بالذكر، فمثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت.

الغفلة بريد الكفر:

والمقصود أن الغفلة هي نوم القلب عن طلب هذه الحياة وهي حجاب عليه، فإن كشف هذا الحجاب بالذكر وإلا تكاثف حتى يصير حجاب بطالة ولعب واشتغال بما لا يفيد، فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى يصير حجاب معاص وذنوب صغار تبعده عن الله، فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى يصير حجاب كبائر توجب مقت الرب تعالى له وغضبه ولعنته، فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع عملية يعذب العامل فيها نفسه ولا تجدي عليه شيئا، فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع قولية اعتقادية تتضمن الكذب على الله ورسوله والتكذيب بالحق الذي جاء به الرسول ﷺ فإن بادر إلى كشفه وإلا تكاثف حتى صار حجاب شك وتكذيب يقدح في أصول الإيمان الخمسة، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه. [مدارج السالكين]

من أسباب الغفلة: كثرة الطعام:

وأما فضول الطعام فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي ويثقلها عن الطاعات، وحسبك بهذين شرا، فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام، وكم من طاعة حال دونها، فمن وقي شر بطنه فقد وقي شرا عظيما، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام ولهذا جاء في بعض الآثار: ضيقوا مجاري الشيطان بالصوم وقال النبي: «**ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن**». [رواه الترمذي وحسنه]

ولو لم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله ساعة واحدة، جثم عليه الشيطان ووعده ومناه وشهاه وهام به في كل واد، فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت[1] سكنت وخشعت وذلت.

كثرة النوم تورث الغفلة وتفسد القلب:

وكذلك كثرة النوم فإنه يميت القلب ويثقل البدن ويضيع الوقت ويورث كثرة الغفلة والكسل. [مدارج السالكين]

إطلاق البصر يوجب الغفلة:

وكذلك إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة ويوقع في سكرة العشق كما قال الله تعالى عن عشاق الصور: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢]، فالنظرة كأس من خمر، والعشق

---

(١) جوعًا اختياريًا بسبب الصيام أو تقليل الطعام.

الخمر، فإن سكران الخمر يفيق، وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات كما قيل:

سكران سكر هوى وسكر مدامة
ومتى إفاقة من به سكران

بداية العلاج اليقظة:

فأول منازل العبودية اليقظة وهي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين، ولله ما أنفع هذه الروعة وما أعظم قدرها وخطرها وما أشد إعانتها على السلوك، فمن أحس بها فقد أحس والله بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة، فإذا انتبه شمر لله بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى وأوطانه التي سبي منها:

فحي على جنات عدن فإنها
منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبى العدو فهل ترى
نعود إلى أوطاننا ونسلم

فأخذ في أهبة السفر فانتقل إلى منزلة العزم، وهو العقد الجازم على المسير ومفارقة كل قاطع ومعوق ومرافقة كل معين وموصل، وبحسب كمال انتباهه ويقظته يكون عزمه، وبحسب قوة عزمه يكون استعداده. [مدارج السالكين]

الصلاة علاج للغفلة:

وما بين الصلاتين تحدث للعبد الغفلة والجفوة والقسوة،والإعراض والزَّلات، والخطايا، فيبعده ذلك عن ربه، وينحّيه عن قربه، فيصير بذلك كأنه أجنبي من



العدو له فأسره، وغله، وقيّده، وحبسه في سجن نفسه وهواه.

فحظه: ضيق الصدر، ومعالجة الهموم، والغموم، والأحزان، والحسرات، ولا يدري السبب في ذلك. فاقتضت رحمه ربه الرحيم الودود أن جعل له من عبوديته عبودية جامعة، مختلفة الأجزاء، والحالات بحسب اختلاف الأحداث التي كانت من العبد، وبحسب شدَّة حاجته إلى نصيبه من كل خير من أجزاء تلك العبودية. [أسرار الصلاة]

الذكر ترياق الغفلة:

وقوله ﷺ: «**وآمركم أن تذكروا الله تعالى، فإن مثل ذلك مثل رجل خرج العدو في أثره سراعا حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله**».

فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقا بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى وأن لا يزال لهجا بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه، وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله تعالى وتصاغر وانقمع حتى يكون كالوصع وكالذباب، ولهذا سمي الوسواس الخناس أي يوسوس في الصدور، فإذا ذكر الله تعالى خنس أي كف وانقبض قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر الله تعالى خنس». [الوابل الصيب]

والقلب إذا كان نائما فاتته الأرباح والمتاجر وكان الغالب عليه الخسران، فإذا استيقظ وعلم ما فاته في نومته شد المئزر وأحيا بقية عمره واستدرك ما فاته، ولا تحصل يقظته إلا بالذكر، فإن الغفلة نوم ثقيل.

[الوابل الصيب]

البعد عن مجالس الغفلة:

«فمجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس الغفلة مجالس الشياطين، وكلٌّ مضاف إلى شكله وأشباهه وكلُّ امرئ يصير إلى ما يناسبه». [الوابل الصيب]

محاسبة النفس:

ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به أو مشت إليه رجلاه أو بطشت يداه أو سمعته أذناه: ماذا أرادت بهذا، ولمن فعلته، وعلى أي وجه فعلته، ويعلم أنه لابد أن ينشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلته، وكيف فعلته، فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة، وقال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]». [إغاثة اللهفان]

ومضة:

قال بعض السلف رحمة الله عليهم: ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن ذكرك. [الوابل الصيب]

***

الرياض ص.ب ٢٤٥٧٦٠ هاتف: ٤٧٩٢٠٤٢ فاكس: ٤٧٢٣٩٤١